القسم الثالث

أسس أخلاقية

٤٨- الإخلاص مع النِّيَّة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

الأعراف ٢٩

٢-قُلِ اللهَّ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤)

الزمر ١٤

٣-هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

غافر ٦٥

٤-وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

البينة ٥

الأحاديث

١- عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نَوَى (رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي).

٢- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (رواه مسلم في كتاب البر والآداب).

obeikandl.com

٣- عن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (حديثا قُدْسيا) فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بَيَّن ذلك. فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عَشْر حسناتٍ إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة (رواه البخاري في الرقاق ومسلم في الأعمال).

٤- في رسائل ابن تيمية الكبرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله: لاقوني بنياتكم ولا تلاقوني بأعمالكم.

والله عزَّ شأنه في الآية الأولى يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس إن الله أمر بالقسط أي العدل الذي لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يقيموا وجوههم ﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي يقبلوا على عبادته في كل مكان متَّخذ لعبادته ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي اعبدوه عبادة خالصة له أي صافية وخالية من إشراك غيره معه. والدين في هذه الآية والآيات التالية بمعنى الطاعة من قول العرب: دان لفلان أي أطاعه. ويأمر الله رسوله في الآية الثانية أن يقول إنني لا أعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصا له ديني وطاعتي وعبادتي. وخير ما يصور هذا الإخلاص في طاعة الله وعبادته حق عبادته قول الله في سورة الأنعام لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فصلاته ونسكه أو عبادته ومحياه أي كل ما يأتيه من عمل في الحياة وما يكون عليه موته أي حتى النفس الأخير، كل ذلك يقدمه إلى ربه خالصا لوجهه.

والآيات الأربعة تدعو الرسول والمسلمين إلى هذا الإخلاص في عبادة ربهم بحيث يكون نقيا من كل شائبة ابتغاء وجه الله وطلبا لرضاه، وهو بذلك إخلاص قلبي يجتمع فيه العمل واكتمال النية. والأحاديث الأربعة تفيض في بيان النية حتى يجعلها الرسول في الحديث الأول مبدأ عاما للحياة الدينية في الإسلام، فكل عمل فيها إنما يقدر- أو لا يتم- إلا بالنية التي تصحبه، والمسلمون يرددونها مع كل عبادة: في الصلاة والصيام والزكاة والحج، إذ هي دليل الإخلاص وعنوانه، وبدونها لا يتحقق عمل أبدا ولا يُعْتَدُّ به شرعا كما يقول الحديث الأول: وإنما لكل امرئ ما نوى، فجزاؤه على عمله بقدر نيته. وبذلك تخرج العبادة التي يخالطها الرياء سواء أراد بها المتعبد

أن يراه الناس، وقد ذم الله هذه الصورة في القرآن مرارا ونعت بها المنافقين، أو أراد بها التقرب إلى الله مع مخالطتها بالرياء فإن العبادة إذن تحمل حظا لغير الله، فلا تكون خالصة لوجهه، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «الرياء الشِّرْك الأصغر».

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم» والنظر في الحديث مجازى، إذ المراد به الجزاء أي أنه لا يجزى الناس ولا يثيبهم حسب أجسامهم وصورهم، فذلك ظاهر منهم لا يهمه إنما يهمه منهم قلوبهم ومقاصدهم ونياتهم، فهي التي تقدَّر بها عباداتهم وأعمالهم الشرعية.

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث القدسي الثالث «إن الله كتب الحسنات والسيئات» أي عملها علما مرافقا لواقعها، وبَيَّن الله ذلك «فمن همَّ بحسنة» وعزم عليها وصمَّم، ثم لم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وهو كرم عظيم من الذات العلية، وكأنه جزاه على نيته وحدها دون قيامه بعمل الحسنة. «وأن هم بها» أي نواها وصمم عليها «فعملها» وأداها مطابقا بين النية بها وعملها «كتبها الله عنده» أي جزاه عليها «عشر حسنات» كما قال في سورة الأنعام ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ويقول الرسول: «إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة كما قال الله في سورة البقرة: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «وإن همَّ بسيِّئة «فلم يعملها» ابتغاء وجه ربه لا عجزا ولا خوفا ولا رياء «كتبها الله عنده حسنة كاملة» وهو لطف عظيم من الله أن يعد امتناع العبد عن عمل السيئة خيرا ويجزيه عليه بحسنة كاملة «وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيِّئة واحدة» فلا يُجْزَى إلا مثلها كما قال الله في سورة الأنعام: ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في أول هذا الحديث إن الله يجزى على النية وإن لم يتبعها العمل، وهو ما يؤكده الحديث الرابع الذي يقول الله فيه: «لاقونى بنياتكم ولا تلاقونى بأعمالكم» فالنية الصادقة الصادرة عن قلب المؤمن هي الأساس وهى التي يثاب بها المؤمن الصالح إذ هي الدافع لعبادته وأعماله.

٤٩- العِزَّة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

البقرة ١٢٩

٢-قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)

آل عمران ٢٦

٣-مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا

فاطر ١٠

٤-يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

المنافقون ٨

الأحاديث

١- عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تَدْرِينَ لِمَ كان قومُك رفعوا باب الكعبة؟ قلت: لا قال تعززا أن لا يدخلها إلا مَنْ أرادوا (رواه مسلم في كتاب الحج).

٢- عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا تمنعنَّ أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول الحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرِّب من أجل ولا يباعد من رزقٍ أن يقول الحق (رواه ابن حنبل في مسنده).

٣- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله ؟ قال يتحمل من البلاء ما لا يطيق (رواه ابن كثير وقال: ثبت في الصحيح).

obeikandl.com

٤- قال عبد الله بن أبىّ المنافق في غزوة بنى المصطلق: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها (يريد أهلها من الأنصار) الأذلَّ (يريد الرسول والمهاجرين) ولما وصلوا إلى المدينة استلَّ عبد الله ابنه سيفه، فلما جاء أبوه قال له لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله، فأذن له، وقال لابنه ترفَّقْ بأبيك وأحسنْ صحبته ما بقى معنا (روته كتب التفسير في سورة المنافقين وكتب السيرة النبوية في غزوة بنى المصطلق).

وتحمل الآية الأولى لفظة (العزيز) وهى من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى وهو القوى الغالب لكل شيء من العز، وهو القوة والشدة والغلبة، ومنه العزة وهى الرفعة والامتناع، والأصل في ذلك كله العَزاز والعزز وهى الأرض الصلبة، ومن أسماء الله المعز، وهو الذي يَهب العزة لمن يشاء من عباده. وفى الحديث الموجه للسيدة عائشة إن أهلكِ رفعوا باب الكعبة تعززا أي تشددا وإظهارًا للغلبة والقوة. والعزيز: القوى الذي لا يُغلَب، ومنه في وصف القرآن الكريم بسورة فُصِّلت: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي لا يأتيه الباطل من أي جهة من جهاته لأنه منزل من رب العالمين.

والله- تبارك اسمه- في الآية الثانية يوجه الخطاب للرسول وهو موجَّه له ولأمته (اللهم) تقال فقط في الدعاء أي يا الله أغْدِقْ علينا من نعمك إنك ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ أي المتصرف في الملك والكون جميعه، تدبره أعظم تدبير ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ وتعطيه له عطاء ربانيا ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ وتأخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ فتهب له العزة والمنعة والقوة ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ فتهوى به في مهاوى الذل والهلاك والحرمان ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ جميعه، تمنحه وتمنعه من تريد، لا رادَّ لإرادتك ولا لخيرك ولا لإعطائك، فأنت المعز المذل، الرافع الخافض الذي ينبغي أن لا يعوِّل أحد في خفض ورفع وذل وعز إلا عليه ولا يرهب سواه. ويوصى الرسول- صلى الله عليه وسلم- مرارا المسلم كما في الحديث الثاني أن لا يرهب أحدا في قول الحق، فإن قوله لا يقرِّب من موت ولا يباعد من رزق بل إن واجبه أن يعلنه إعلانا لا يخشى فيه لوم لائم حتى ينال رضا ربه ورضا الناس من حوله.

والله- جَلَّ شأنه- في الآية الثالثة- يقول إن من يعرض عن الإسلام يخال في ذلك تمسكا بعزته فتخيله أو خياله باطل، إذ العزة الحقيقية إنما هي لله صاحب العزة القاهرة، من عَزّ الشخص إذا غلب وسيطر. فهو المسيطر على الوجود وكل من فيه، سيطرةً لا يستطيع أحد دفعها ولا معارضتها أو ممانعتها؟. وقيل العزيز من عز بمعنى ندر وقلّ، والله عديم المثل في القدرة والسلطان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. ويقول الغزالي: العزيز هو الخطير الذي يقلّ وجود مثله، وتشتد إليه الحاجة ويصعب الوصول إليه، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره، ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه فإنه لا يسمى عزيزا كالشمس مثلا، فإنها لا نظير لها ونفعها عظيم والحاجة إليها شديدة ولكن لا توصف بالعزة، إنما العزيز الله وحده الذي يستحيل وجود مثله بينما يحتاج إليه كل موجود في وجوده وبقائه وما من مسلم إلا ويستشعر به العزة لنفسه. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث إنه ينبغي للمسلم أن لا يذل نفسه فسأله الصحابة وكيف يذلّ نفسه، فأجاب: يتحمَّل من البلاء ما لا يطيقه ويرتضيه فيستشعر بذلك ذلك، لا يماثله ذل.

وكان السبب في نزول الآية الرابعة أن عبد الله بن أُبّى بن سَلول قال: (لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ (أي الأنصار) مِنْهَا (أي من المدينة) الأذلَّ (أي المهاجرين). وذلك بسبب شر وقع بين جهجاه الغفارى أجير عمر بن الخطاب وبين سنان بن وَبر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج، ونادى جهجاه الغفاري: يا للمهاجرين، ونادى سنان الجُهَني يا للأنصار، وعلَّق عبد الله بن أبىّ تعليقه السالف، وبلغ تعليقه أو مقالته رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشاع ذلك عنه، فتبرَّأ منه ابنه عبد الله، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا رسول الله أنت- والله- الأعز، وإن شئت والله لنخرجنَّه من المدينة. وفى رواية ثانية أن عبد الله بن عبد الله بن أَبَىّ بن سلول قال: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل أبى، فإن كنت تريد ذلك فمُرْني بقتله، فإني أخشى يا رسول الله إن قتله غيري أن لا أصبر عن طلب الثأر فأقتل به مسلما فأدخل النار، وقد علمت الأنصار إني من أبرِّ أبنائها فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم- خيرا ودعا له وقال له: بِرَّ أباك، ولا يرى منك إلا خيرا. ويقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما سمع أن المتخاصمين دعوا: يا للمهاجرين ويا للأنصار قال ما بال دعوى الجاهلية القائمة على التعصب عادت، وقال: دَعُوها فإنها منتنة. ومعروف أن الإسلام أبطل كل الدعوات الجنسية والعصبية، وقال عمر بن

الخطاب: دَعْنى- يا رسول الله- أضربْ عنق هذا المنافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دَعْهُ لا يتحدَّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه. ويجرِّد الله عبد الله بن أبى وأمثاله من المنافقين من كل عزة قاصرا العزة عليه وعلى رسوله وعلى المؤمنين أما لله فلأنه صاحب العزة والقوة والسيطرة التامة على الكون ومخلوقاته، وأما للرسول فبما منحه الله من الرسالة النبوية التي تهب الناس السعادة في الدنيا والآخرة، وأما للمؤمنين فبِما أعطاهم من نصر على المشركين، وبما أعزَّهم به من طاعة له واستهانة بالشهوات وملذات الدنيا الفانية.

obeikandl.com

٥٠- الصدق- النُّصْح

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ

المائدة ١١٩

٢-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

التوبة ١١٩

٣-وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ... أَعَدَّ اللهُّ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

الأحزاب ٣٥

٤-أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)

الأعراف ٦٨

الأحاديث

١- عن الحسن بن على بن أبى الطالب رضى الله عنهما: حَفِظْتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم: دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبك، فإن الصدق طمأْنينة والكذب ريبة (رواه الترمذي ورواه ابن حنبل في مسنده عن أنس).

٢- عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ الصدق يَهْدى إلى البِرِّ، وإن البِرَّ يهدى إلى الجَنَّة، وإن الرجل ليَصْدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا (رواه البخاري في كتاب الأدب ومسلم في كتاب البر).

٣- عن تميم بن أوس الدارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الدين نصيحة، قلنا لمن ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

obeikandl.com

٤- عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء للزكاة والنُّصْح لكل مسلم (رواه البخاري في كتاب الإيمان).

يبشر الله في الآية الأولى عباده الصادقين الموحدين له بأن يوم القيامة يوم نفعهم بصدقهم وتوحيدهم له، إذ يجزيهم الجزاء الأولى لصدقهم، فيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يخلدون فيها خلودا أبديا. ويصفهم الله في نفس الية بأنه رضى عنهم هذا الرضا الذي يتمناه الأتقياء الأبرار، ويشفع ذلك بأن الصادقين كما رضى عنهم رضوا عنه، وهو إكرام من الله ما بعده إكرام.ورضاهم عنه كناية واضحة عن كثرة إنعامه عليهم توالى ذلك حتى طابت نفوسهم. وبحق تقول الآية في خاتمتها: ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وهو فرز لا يتمنى المسلم الصادق فوزا وراءه، فوز يملأ نفسه أمنا وطمأنينة. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم لحفيده الحسن ناصحا: «دَعْ ما يريبك» ويدخل الطمأنينة النفسية عليك أي دع الكذب إلى الصدق، فإنه يريح النفس ويشعرها بالأمان. ومما يروى في قصص العرب تحبيبا في الصدق وتنفيرا منا لكذب أن صبيا كذابا كان يرعى غنم أبيه، وسوَّل له الكذب أن يصرح في قريته أن ذئبا عدا على غنمه فخرجت القرية لترد الذئب، وإذا هي تجد الصبي كاذبا، ومرَّت أيام وإذا ذئب يعدو على غنمه، فصرخ في أهل قريته مستنجدا بهم، غير أنهم ظنوه يكذب في صراخه الثاني كما كذب في صراخه الأول فلم ينجده أحد. وتلك عاقبة الكذب وكيف أنه يعود على صاحبه بخسران محقق، سوى خسرانه لكرامته ومروءته وسط أهله ووسط عارفيه من قريته وغير قريته، مما يجعل الناس تنفر منه وتزورُّ عنه، بينما الردل المعروف بالصدق تؤدُّه الناس وتقبل عليه وتأنس له أنسا متصلا.

ويقول الله- جَلَّ شأنه- في الآية الثانية: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي كونوا أيها المسلمون مع من يتخذون الصدق شعارهم ولم يعدلوا نه يوما. والمراد الصدق في العقيدة الإسلامية، فهم يأتمرون بما أمر الله به من عبادات وما حذَّر منه من منهيات عن اقتناع عميق تتعانق فيه الأدلة العقلية والشرعية، وهم- بذلك- مسلمون صادقون. وهم لا يقولون إلا الكلام اللين الطيب الذي يستروحه السامعون، وإذا تحدثوا صدقوا في حديثهم. وهم بذلك أصفيا النفوس والقلوب.

ويبشر الله في الآية الثالثة الصادقين والصادقات بأن لهم مغفرة إلهية لما فرط من ذنوبهم وأجر عظيما، وهو ما ذكرناه منذ قليل من جنات يخلدون بها خلودا أبديا. والوصف بالصدق هنا يشمل الصدق مع النفس مما يتصل بالطهر والإخلاص والصدق مع الله في الوفاء له بالإيمان المخلص لذاته وللملائكة والرسل والكتب السماوية واليوم الآخر وبأداء فروضه من الصلاة والصيام والزكاة والحج، والصدق مع الزوجة والأبناء والأسرة في أداء مطالبهم، والصدق مع غيرهم في جميع الالتزامات والعقود والمعاملات، مع التحلي بمحامد الآداب والأخلاق. وإلى ذلك كله أشار الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث إلى أن الصدق يهدى إلى البرِّ، والبر هو الخير الكامل الذي يشمل جميع مقاصد الشريعة أو أكثرها كما جاء في آية ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ من سورة البقرة، فقد شمل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والتصدق بالأموال على الفقراء والمساكين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر، ووصف الله في ختام الآية من يقومون بذلك كله بأنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ في إسلامهم. ويقول الحديث إن البر يهديهم إلى الجنة جزاء أوفي لصدقهم، كما يقول إن الرجل ليظل يصدق حتى يكتب عن الله صِدِّقا أي مبالغا في الصدق مكثرا منه، والرسول صلى الله عليه وسلم يشير بذلك إلى آية سورة النساء: ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ وهو جزاء للصِّدِّيق لا يماثله جزاء، إذ وضعه الله في سجلّ مَنْ أنعم عليهم من النبيين والشهداء والصالحين.

والنصح للمسلمين من الخصال الإسلامية الرفعية ومن سنن المرسلين القويمة، فقد قال نوح لقومه إنني مرسل إليكم من ربِّ العالمين ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾. والنصح والنصيحة إرادة الخير- مع حسن النية- في تنبيه الشخص إلى ما يعود عليه بالنفع مع دفع المضرة عنه. ويقول الله في الآية الرابعة على لسان هود لقومه عاد: قد بلَّغتكم رسالات ربى ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ أي سأظل لكم ناصحا أمينا أؤدي ما كلَّفني الله بتبليغه إليكم أداء أمينا أمانة تامة لا أضيِّع منه شيئا. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع: الدين النصيحة، وسُئل لمن النصيحة، فقال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

والنصيحة لله وصفه بما يستحقه، وتنزيهه عما لا يليق به، وتعظيمه وطاعته ظاهرا وباطنا، وعمل ما يحبه ويرضى عنه، والبعد عما يسخطه ويغضبه، وموالاة مَنْ أطاعه ومعاداة من عصاه. والنصيحة لكتابه إحسان تلاوته وتفهم معانية، والإخلاص لأوامره ونواهيه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾. والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم بنَصره ومؤازرته في حياته واتباع شريعته وسنته وتعاليمه بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، مع التخلق بأخلاقه الرفيعة وخصاله الكريمة. والنصيحة لأئمة المسلمين: عَوْنهم على ما ينهضون به من مصالح الأمة، والإخلاص في إرشادهم عند الحاجة. والإخلاص لعامة المسلمين: الشفقة على ضعفائهم من الشيوخ واليتامى والنساء، والرحمة بفقرائهم، ومدّ يد البِرِّ لهم، وتفريج كروبهم، والمساعدة في كل ما يعود على أفراد الأمة بالخير.

وكان مما يأخذ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم البَيْعة لاعتناق الإسلام- كما في الحديث الخامس: النُّصح لكل مسلم مما يشمل مصالح الأفراد ومصالح الأمة، وكان عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- يقول: رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي. وقد تكون جرعة النصيحة مرة، ولكن العاقل يتقبَّلها كما يتقبَّل جرعة الدواء لعاقبتها الحسنة، وقال عمر بن عبد العزيز لميمون بن مهران: قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حقا حتى يقول له في وجهه ما يكره. ومما يقال وَدَّك من نصحك، وغشك من مشى في هواك.

٥١- التواضع- الحياء

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)

الشعراء: ٢١٥

٢-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

المائدة: ٥٤

٣-يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ

الحجرات: ١٣

الأحاديث

١- عن عياض المجاشعى التميمي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أوحى إلَيَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد (رواه مسلم في كتاب الجنة ونعميها وأبو داود وابن ماجه جميعا عن عياض).

٢- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله (رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب).

٣- وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإيمان بِضْعٌ وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان (رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان).

٤- عن أبي مسعود الأنصاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فأصنع ما شئت (رواه البخاري).

obeikandi.com

والله –عز شأنه- يطلب من رسوله في الآية الأولى أن يتواضع للمؤمنين ويرفق بهم، واستعارات الآية للعبير عن ذلك خفض النجاح في الطائر، وأصله أن الطائر إذا أراد ضمَّ فرخه إليه بسط له جناحه ثم قبضه عليه، والجناحان من الشخص جانباه، وكأنه يقول لرسله: ليِّن جانبك للمؤمنين، وأرؤفْ بهم وتواضَعْ لهم، إذ بذلك يحبونك ويلتفون حولك. وكان شديد التواضع لصاحبه، ويقول خادمه أنس بن مالك إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيده، فتنطلق به حيث شاءت ليقضى لها حاجة تريدها. ويحكى الصحابة وزوجاته عن تواضعه الشديد حكايات وأمثلة كثيرة. وتبعه الصحابة يقتدون به في تواضعه، وكان يوصى به الصحابة دائما ويقول لهم- كما في الحديث الأول إن الله أوحى إليه- إما إلهاما وإما برسالة عن طريق جبريل- أن تواضعوا أيها المسلمون، والتواضع يكون لله بتعظيمه، أما للناس فمنه محمود ومنه مذموم، والمحمود منه يدخل فيه التواضع للأهل وللعلماء وأصحاب العمل الصالح، وهو تواضع لله، أما التواضع لأهل الظلم فذلك ذل ما بعده ذل. وينهى الرسول في الحديث عن التفاخر بالآباء والأعمال كما ينهى عن البغي والظلم المفسد للحياة.

والله- عزَّ شأنه- يطلب من رسوله في الآية الأولى أن يتواضع للمؤمنين ويرفق بهم، واستعارات الآية للعبير عن ذلك خفض النجاح في الطائر، وأصله أن الطائر إذا أراد ضمَّ فرخه إليه بسط له جناحه ثم قبضه عليه، والجناحان من الشخص جانباه، وكأنه يقول لرسله: ليِّن جانبك للمؤمنين، وأرؤفْ بهم وتواضَعْ لهم، إذ بذلك يحبونك ويلتفون حولك. وكان شديد التواضع لصاحبه، ويقول خادمه أنس بن مالك إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيده، فتنطلق به حيث شاءت ليقضى لها حاجة تريدها. ويحكى الصحابة وزوجاته عن تواضعه الشديد حكايات وأمثلة كثيرة. وتبعه الصحابة يقتدون به في تواضعه، وكان يوصى به الصحابة دائما ويقول لهم- كما في الحديث الأول إن الله أوحى إليه- إما إلهاما وإما برسالة عن طريق جبريل- أن تواضعوا أيها المسلمون، والتواضع يكون لله بتعظيمه، أما للناس فمنه محمود ومنه مذموم، والمحمود منه يدخل فيه التواضع للأهل وللعلماء وأصحاب العمل الصالح، وهو تواضع لله، أما التواضع لأهل الظلم فذلك ذل ما بعده ذل. وينهى الرسول في الحديث عن التفاخر بالآباء والأعمال كما ينهى عن البغي والظلم المفسد للحياة.

ويُطَمْئِنُ الله في الآية الثانية الرسول وَالمسلمين بأنه إذا كان بينهم من لا يزال في قلوبهم مرض وشك في الدين الحنيف وارتدوا فعلا عن الإسلام وعادوا إلى ما كانوا فيه من الشرك ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ ﴾ غيرهم يعتنقون هذا الدين العظيم راغبين فيه مخلصين له يحبهم الله ويرضى عنهم ويحبونه فيطيعونه ويعبدونه ويعظمونه حق تعظيمه، ويصفهم الله بأنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي متواضعون لهم تواضعا كريما كله رقة ورأفة ومحبة ورحمة ومودة ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي يشعرون إزاءهم بالعزة والقوة وأن لهم الغلبة. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني: ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله، أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه يضع في قلوب الناس محبة له فيبجّلونه ويعظمونه وينزلونه في نفوسهم منزلة كريمة، وأما في الآخرة فإن الله يجزيه عن تواضعه جزاءً حسنا، ويدخله جنته.

ويخاطب الله الناس في الآية الثالثة قائلا إنه خلقهم جميعا من ذكر وأنثى هما آدم وحواء أبو البشر، فأنتم بذلك متساوون في النسب والأبوة ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي لا ليفخر بعضكم على بعض ولا ليشعر بعضكم بالاستعلاء على بعض بل إنه ينبغي لذلك أن يتواضع بعضكم لبعض، ويعرف كل منكم أخوته لغيره، فلا يفخر عليه ولا يتطاول بل يخفض له جناحه ويرفق به. ويستضئ الرسول بهذا النسب الواحد للبشر في إلغاء العنصرية والتفاضل بين الأمم والناس في خطبة حجة الوداع، ويرد التفاضل- كما في الآية- إلى التقوى قائلا: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربى على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى». والله ورسوله بذلك يدعوان إلى المساواة بين الشعوب والناس فلا تفاخر ولا شعور بصلف أو استعلاء، إنما تواضع وتساوْ وتعايش سليم.

وينوِّه الرسول مرارا بخلق الحياء ويحثّ عليه لأنه يحجب صاحبه عن الفواحش والمعاصي ويدفعه إلى أن لا يأتي من الأقوال والأفعال إلا ما كان حسنا طيبا، مع إيثار كل ما فيه خير ورفض كل ما فيه شر. وهو من شيم الرسول الرفيعة إذ كان- كما ذكر المحدِّثون- أشدَّ حياء من العَذْراء في خِدْرِها أي بيتها، وأنه كان إذا رأى شيئا يكرهه لم يتكلم حياء، بل يتغير وجهه، فيفهم الصحابة كراهته لذلك. ويقول- كما في الحديث الثالث- الحياء شعبة من الإيمان أي أنه جزء منه لمنعه الإنسان من المعاصي كما يمنعه الإيمان الصادق. وللحياء ثلاثة فروع: حياء من الله وحياء من

الناس وحياء صاحبه من نفسه، فأما الحياء من الله فيكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهو بذلك يحمل صاحبه على الإخلاص في عبادة الله وتقواه. والحياء من الناس يكون بكف الأذى عنهم وأداء حقوق كل من له حق عليه من مثل بر الوالدين والإنفاق على الزوجة والأبناء وصلة الأقارب. ومن الحياء من الناس الامتناع عن المجاهرة بكل قبيح من قول أو فعل، ومن قول الرسول: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى (أي الأنبياء السابقين) إذا لم تَسْتَح فاصنَعْ ما شئت» أي إذا لم تستح من إتيان القبيح قولا أو فعلا فاصنع منه ما شئت. والحديث بذلك تهديد وتوبيخ لمن ينضب ماء الحياء من وجهه. ويمكن أن يوجَّه الحديث توجيها آخر، وهو أنك إذا أردت فعل شيئا وكنت آمنا فيه من أن تستحي من الله ومن الناس وأنك تجرى فيه على طريق سليم فافعل ما شئت، وإلاَّ فلا تفعله، والحديث بذلك يكون الأمر فيه للإباحة كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما أحببت أن تسمعه أذناك فَأْته وما كرهت أن تسمعه أذناك فاجتنبه». والمعنى الأول للحديث وهو أن الأمر فيه للتهديد لا للإباحة أصح من المعنى الثاني. وأما الحياء من النفس فيكون بالتزام العفة وصيانة الفكر عن خواطر المعاصي والشهوات مع محبة عمل الخير وقوله، ومع حسن السريرة.

٥٢- العفاف

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِّ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَّ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

البقرة: ٢٧٣

٢-وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

النساء: ٦

٣-وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهَّ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهَّ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهَّ مِنْ فَضْلِهِ

النور: ٣٢ و ٣٣

٤- وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ

النور: ٦٠

obeikandl.com

الأحاديث

١- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس للمسكين الذي يطوف على الناس ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان إنما المسكين الذي يتعفَّف، واقْرَءوا إن شئتم قوله تعالى: لا يسألون الناس إلحافا (رواه البخاري).

٢- عن رجل أنه جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: إن عندي يتيما عنده مال وليس لي مال هل آكل من ماله؟ قال كُلْ بالمعروف غير مسرف (رواه أبو داود و النسائي).

٣- عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة (أي القدرة على الزواج) فليتزوَّج فإنه أغضُ للبصر وأحصن للفرج، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاءٌ (أي وقاية) (رواه البخاري ومسلم).

٤- عن حكيم بن حزام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اليَدُ العليا خير من اليد السُفْلَى، وأبْدَأْ بمن تعولُ، وخير الصدقة عن ظهر غنِىً، ومَنْ يَسْتَعْفِف يعفَّه الله، ومن يَسْتَغْن يُغْنه الله (رواه البخاري ومسلم).

المراد بالفقراء في الآية الأولى المهاجرون الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم بمكة وجاءوا المدينة دار الهجرة، ويقول الله إنهم ﴿أُحْصِرُوا﴾ في سبيل الله أي حُبسوا للجهاد مع رسول الله وكانوا يخرجون للغزو في السرايا التي كان يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أنزلهم الرسول في رواق ألحقه بمسجده كان يسمى الصفَّة، ولذلك يسمون أهل الصفة، ويقول الله إنهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سيرا فيها للتجارة لضيق ذات يدهم، ويقول: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ ﴾ بأمرهم وحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾وهو النزاهة عن السؤال: ونهى الرسول الفقراء من صحابته مرارا وتكرار عن سؤال الناس مالا أو شيئا ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ خطاب لكل شخص أي تعرفهم بالعلامات الدالة على فقرهم وحاجتهم دون أن يتعرَّضوا لك بالسؤال ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أي إلحاحا فهم لا يلحون في السؤال إن سألوا. والأولى أن يكون المعنى لا يسألون الناس مطلقا بدليل قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول: ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان واللقمة

واللقمتان بسؤاله الناس إنما المسكين الذي يتعفف واقرءوا قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾. ويقول الله حاضا على الإنفاق على أهل الصفة من الفقراء المتعففين عن السؤال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أي أنه عليم به وجزاؤه عنده عظيم.

والآية الثانية موجهة إلى الأوصياء على أموال اليتامى وأنه ينبغي عليهم حين يأتي الوقت على اليتيم من مقاربة البلوغ ونضج العقل وقرب أن يصبح راشدا أن يبتليه الوصي، وهو قوله تعالى: ﴿ابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أي يختبر الوصي اليتيم بتصرفه حينئذ في بعض ماله ليرى بوضوح قدرته على التصرف به. وواضح من قوله تعالى بعد ذلك ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ أي الزواج أنَّ وقت اختبار اليتيم بتصرفه في بعض ماله يكون بعد التمييز وقُبَيْل البلوغ. ويقول الله إنهم حين يبلغوه ﴿آنَسْتُمْ مِنْهُمْ ﴾ أي علمتم ﴿مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ أي تصرفا سليما في المال وحسن تدبيره ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا ﴾ أي إفراطا في إنفاقها على اليتيم في ثيابه وطعامه ومسكنه ومركبه، حتى إذا بلغ الرشد لم يجد مالا ينتفع به ويتعيش منه بالتجارة أو غيرها. يشير إلى ما كان يصنعه بعض الأوصياء من أكل أموال اليتامى إسرافا ﴿وَبِدَارًا ﴾ أي مبادرة قبل ﴿أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ وتُرَدّ عليهم أموالهم. ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا ﴾ من الأوصياء ﴿ فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ عن أخذ شيئًا من مال اليتيم: وقيل الأمر ليس للوجوب بل للندب فيأخذ أجر مثله ﴿ وَمَنْ كَانَ ﴾ من الأوصياء ﴿ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قيل أي أجرة مثله وقيل قدر حاجته. وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني وصيًّا فقيرا سأله هل يأكل من مال يتيم وصيٌّ عليه، فقال له: كُلّ بالمعروف غير مسرف.

والآية الثالثة حض على الزواج والتزويج، والأيامى جمع أيِّم وهى المرأة لا زوج لها بكرا أو ثيبا، والله جَلَّ شأنه يحض على تزويج الحرائر من المسلمات إذ يقول: ﴿أَنْكِحُوا﴾ أي زوِّجوا ﴿الْأَيَامَى مِنْكُمْ ﴾ أي الحرائر، وبالمثل زوِّجوا ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ قيل أي عبيدكم ﴿وَإِمَائِكُمْ ﴾ فالله يأمر بتزويج الأحرار والعبيد. وقيل ﴿وَالصَّالِحِينَ ﴾ في الآية ليست من الصلاح بمعنى التقوى وإنما المراد الصلاح للتزوج بمعنى القيام بحقوق الزواج. وذهب بعض الفقهاء إلى أن الآية توجب على كل من قدر من المسلمين على الزواج أن يتزوج مستدلين بالحديث الذي يخاطب فيه الرسول الشباب بقوله: من استطاع منكم الباءة أي القدرة على الزواج فليتزوج. ويعد

الله المتزوجين من الفقراء أن يغنيهم من فضله، وهو وعد لا يتخلف، لسعة فضله وآلائه على البشر، ثم يقول عزَّ شأنه: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أي زواجا وقدرة عليه، وهو أمر إلهي بالتعفف عن الحرام ﴿ حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وعطائه الذي لا حد له. ويوصى الرسول صلى الله عليه وسلم من لا يستطيعون الزواج في الحديث الثالث بالصوم فإنه لهم وقاية عظيمة.

والآية الرابعة خاصة بالقواعد من النساء أي المتقدمات في السن ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي لا يطمحن إلى الزواج فإنه لا جناح عليهن في أن يتخففن من ثيابهن ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي غير قاصدات بالتخفف من ثيابهم تبرجا وتكشفا لما عليهن وعدم خلعها طلبا للاستعفاف والعفَّة خير وأفضل لهن.

وواضح أن القرآن الكريم حضَّ على التعفف والعفة عن سؤال المحتاج مستعينا بالصبر آملا في الفرج من عند الله، كما حض على العفة والتعفف عن أخذ أموال اليتامى نهبا واغتصابا، وأيضا فإنه حض على وجوب العفة والتعفف عن شهوات النفس، وافتتانها بالنساء، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع: مَنْ يستعفف يُعفُّه الله أي يرزقه العفَّة في كل شيئ: في القول والفعل وفى كل ما يأتي من الأمر.

٥٣- الحلم

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥)

هود ٧٥

٢-وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ

آل عمران ١٣٤

٣-فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)

الحجر ٨٥

٤-وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)

فصلت ٣٤

الأحاديث

١- عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمنذر بن عاذل في وفد عبد القيس الملقب بالأشج لجراحة كانت في جبهته: إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٢- عن معاذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه).

٣- عن السيدة عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله (رواه البخاري).

obeikandl.com

٤- عن أبى هريرة أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أَوْصِنِي قال لا تَغْضب وردَّد الرجل طلب الوصية، والرسول يقول: لا تغضب (رواه البخاري في كتاب الأدب).

والآية الأولى يمدح الله فيها الله- تقدَّس اسمه- خليله وحبيبه النبي إبراهيم بصفة من صفاته التي كررها في القرآن كثيرا في مثل: ﴿ أَنَّ اللهَّ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ومثل: ﴿إِنَّ اللهَّ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. والحلم عفو وصفح عن عدوان السفهاء، والحليم لا يستفزّه التقصير في حقه، ولا يغضب إذا تناوله شخص بقدح أو ذم، وقد حلم إبراهيم أعظم حلم حين هيأ له قومه حطبا كثيرا وأوقدوا فيه النار، وقذفوا به في النار، كل ذلك وهو كاظم غيظه إلى أن قال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾. ونجاه الله منها دون أن يصيبه أي أذى. وقصة ابنه إسحق أو إسماعيل مشهورة، وذلك أن إبراهيم قال لابنه كما في القرآن الكريم. ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ وبلغ ابنه ذروة الحلم قائلا لأبيه إبراهيم: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهَّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾. وصمَّم إبراهيم على ذبح ابنه، فأخذه وأخذ معه سكينا، واستسلم له ابنه، فألقاه على وجهه أو بعبارة أدق كما يقول القرآن: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي أكبَّه على جبينه ليذبحه، ولما هَّم بذلك سمع نداء من خلفه: ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ والتفت، فإذا الله قد أرسل إليه بكبش سمين عظيم فداء لابنه. ويقول الله بعد ذكره لهذه القصة في سورة الصافات: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ ﴾ أي إبراهيم ﴿ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهى بشارة تالية للقصة وتدل على أنه إسحق وأن الذبيح هو إسماعيل.

واشتهر كثيرون- عند العرب- بالحلم والأناة وضبط النفس، وفى مقدمتهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ربما سمع كلمة نابية من أعرابي جاف فابتسم ولم يرد عليها، بل حاول أن يسترضيه، وخاصة حين يقسم غنيمة أو مالا من غزوة بين الصحابة. وكان يستحب خصلتي الحلم والأناة بين أصحابه وبهما امتدح أشج بنى عبد القيس في الحديث الأول. ومن الحلماء أبو بكر الصديق، وقال له رجل سفيه لأشتمنَّك شتما يدخل معك في قبرك، فأجابه: يدخل- والله- معك في قبرك لا معي. ومن حلماء العرب الأحنف بن قيس مستوطن البصرة بعد الفتوح قال له رجل إن قلت في كلمة لتسمعنَّ عشرا، فقال الأحنف له- لكنك لو قلتَ في عشر كلمات لم تسمع منى واحدة. ويُرْوى أن رجلا شتمه وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من الحي الذي به منزله وقف الأحنف وقال له: إن كان لا يزال معك شيء فُقلْه هنا، فإن أخاف إن سمعك فتيان الحي أن

يؤذوك. وقال الأحنف تعلمت الحلم من سيد قبيلتنا تميم: قيس بن عاصم الوافد على الرسول صلى الله عليه وسلم فإنني كنت جالسا معه هو يحدِّثنا إذ جاءت جماعة تحمل قتيلا ومعها شابّ أسير، فقيل له: هذا ابنك قتله ابن عمه، فلم يقطع حديثه ولا غيَّر جلسته حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى بعض أبنائه، فقال له: أطلق ابن عمك من أسره، ووار أخاك التراب، وسُق إلى أمِّه مائة من الإبل، فإنها غريبة. وشتم رجل حليما، فأعرض عنه، فقال له: إياك أعنى، فقال الحليم وعنك أُعْرِضُ.

وتمدح الآية الثانية من يضبطون أنفسهم أشد الضبط فيكظمون غيظهم ويظلون متمسكين بحلمهم، وكظم الغيظ مستعار من كظم القربة المملوءة ماء، وقد أمسك منها فمها، وهو تمثيل لإمساك الحليم فمه، وهو ممتلئ غضبا، فلا تندُّ منه كلمة، مما يصور قوة عزيمته وإرادته في قهر غيظه وغضبه. ويصور الحديث الثاني أن من تجرع غيظه وتحمله مع المقدرة على إنفاذه أثابه الله ثوابا عظيما يوم القيامة إذ يدعوه على رءوس الخلائق تنويها بقدره وإعلاء لمكانته عنده، ويخيِّره من الحور العين ما شاء. وينوِّه الرسول مرارا بكظم الغيظ وكتمه، من ذلك ما رواه أبى هريرة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمنا وإيمانا. والحليم مع كظم غيظه قد يعفو عمن أساء إليه، وبذلك يعظم ثوابه. ولذلك تقول الآية الثالثة: ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ وهو الرضا والمسامحة بدون أي عتاب. والله يضيف في آيات مختلفة إلى الصفح العفو كأنه يعده جزء لا يتجزأ منه في مثل قوله بسورة البقرة: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ ويقول في سورة التغابن: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وتقول الآية الرابعة إن الحسنة لا يستوي جنسها مع جنس السيئة، والحسنة تشمل جميع أفراد جنسها من أعمال البر والخير، وبالمثل تشمل السيئة جميع أفرادها من الشرك بالله والمعاصي، وكأن الله يقابل بين حسنات المسلم المحسن وسيئات المشرك بالله المسئ، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ ويقول الله لرسوله ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي ادفع بالحسنى وبالهدى المنزل في القرآن السيئةَ كما قال في سورة المؤمنون ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ والمراد بالحسنى الرفق واللين في الكلام. وكل أمر موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن موجه إلى أفراد أمته جميعا. ويقول الله لرسوله: إن دفعك لعدوك بالحسنى والرفق

ولين الكلام من شأنه أن يؤثر في نفسه تأثيرا عميقا ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ ﴾قد أصبح وليا ناصرا لك وصديقا ودودا. ويوصى الرسول أصحابه مرارا أن يكونوا حلماء يأخذون أنفسهم بالرفق ولين الجانب في حديثهم مع المشركين وحديثهم بعضهم مع بعض ويقول في الحديث الثالث إن الله رفيق أي بعباده لطيف بهم حليم حتى مع العصاة إذ يمهلهم ليتوبوا إليه.

وكما أمر الرسول أصحابه مرارا بالرفق في القول والفعل لما يدل عليه من الحلم المستحب كذلك أمرهم أو قل أوصاهم بعدم الغضب، ومعروف أن غضب المسلم قسمان: محمود ومذموم: والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، والمذمون ما كان في غير الحق، وهو ما نهى عنه الرسول مرارًا، كما في الحديث الرابع، إذ كرر لرجل حين طلب منه وصية أن لا يغضب، لعلمه أن ذلك نافع له. وفى المثل لا يُعْرف الحليم إلا عند الغضب، وقديما قيل لا توقدنَّ في صدرك جمرة الغضب. وشتم رجل الشعبي عالم الكوفة بقبائح وهو صامت لا يرد عليه ولا يغضب، حتى إذا أكثر قال له: إن كنت كاذبا فغفر الله لك، وإن كنت صادقا فغفر الله لي. ولقي رجل جرير بن عبد الله البجلي الصحابي الجليل ومعه ابنه، ونال منه الرجل وشتمه وجرير ساكت، فلما مضى قال ابن جرير لأبيه: يا أبت لم سكتَّ عن الرجل ولم تغضب ؟ قال يا بُنَى أفأُوسِّع جَرْحى، يريد جرير أنه لو كان قد ردَّ عليه لزاد في شتمه، فوسَّع الجرح الذي أحدثه الرجل، وهو حلْم محمود، وقد مدح مثله رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: إن محبة الله وجبت لمن أُغْضِب فحَلُم أو استشعر الحلم.

٥٤- الصبر

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)

البقرة ١٥٣

٢-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا

آل عمران ٢٠٠

٣-وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

الشورى ٤٣

٤-فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

الأحقاف ٣٥

الأحاديث:

١- عَنْ أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ يتصبَّرْ يصبِّرْهُ الله، وما أعطى أحدٌ عطاء خيرا وأوسع من الصبر (روته كتب الصحاح الستة).

٢- عن عبد الله بن أبى أوفى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في إحدى حروبه مع العدو: يا أيها الناس لا تتمنَّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنَّة تحت ظلال السيوف (رواه ابن حنبل والبخاري ومسلم وأبو داود).

٣- عن أسامة بن حارثة أن إحدى كريمات الرسول صلى الله عليه وسلم أرسلت إليه إن ابنى قد احتُضر فاشْهَدْنا، فأرسل إليها يقْرئها السلام ويقول: (إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل حَيٍّ عنده بأجل مسمى ٍّ، فَلْتَصْبِرْ ولتَحْتسِبْ (رواه أصحاب الصحاح إلا الترمذي).

٤- وفى الجامع للترمذي بكتاب الدعوات قال الرسول صلى الله عليه وسلم: انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة.

والله- تقدَّس اسمه- يأمر المؤمنين في الآية الأولى أن يستعينوا بالصلاة لأداء شكره على ما أنعم به عليهم، وبالصبر على ما نزل بهم من محن، ويصور الرسول صلى الله عليه وسلم الحالتين قائلا: عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء وشكر الله عليها كان ذلك خيرا له، وأن أصابته ضراء فصبر كان ذلك خير له. والصبر أقسام: صبر على أداء الطاعات وامتثال أوامر الله فيها مع ما يكون في ذلك من بعض المشقة، وله منازل أن يكون أداء الطاعات رغبة فيما عند الله في أدائها من ثواب وأن يكون هذا الأداء تقربا لله ابتغاء مرضاته، وأن يكون محبة له وشغفا به دون أي تفكير في ثواب أو جزاء أو حتى مرضاته. وبجانب هذا الصبر صبر ثان عن ارتكاب المعاصي التي نهي الله عنها وشدَّد في تحريمها، وتوعَّد مرتكبها بالعقاب الأليم في الآخرة. وصبر ثالث على ما ينزل بالمؤمن من مكروه أو يحلّ به من محنة أو بلاء، وله أيضا منازل إذ قد يكون طلبا لحسن الجزاء، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن صبرت مَضَى أمر الله أي نفذ وكنت مأجورا أي مثابا، وإن جزعت فلم تصبر مضى أمر الله ونفذ وكنت مأزورا أي غير مأجور ولا مثاب. وقد يكون الصبر على المكروه والبلاء عن رضا وتقبل صادق للقضاء وحسن ظن الله، وقد يكون عبادة لله بتجرُّع غصص المحنة والبلوى، دون أي جزع ودون أي شكوى. وقَدَّم الله في الآية الصبر على الصلاة أم العبادات لمنزلته عنده، وهو إعزاز لأصحابه أنه مع الصابرين، ونوَّه الله بر مرارا في القرآن الكريم، وقال في سورة الزمر تنويها بأصحابه وما ينتظرهم من ثواب عظيم: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ويقول الرسول في الحديث الأول من يتصبر إزاء أي شيء يُعنْه الله على التصبر، ويقول إن الله لم يعط أحدا عطاء خيرا وأوسع من الصبر ويصور الله هذا العطاء في آية سورة الرعد وما جاء فيها من أن أهل الجنة ينادَون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ فقد أثابهم ثوابا كبيرا بجنته لصبرهم على طاعته وصبرهم عن معصيته.

ويأمر الله في الآية الثانية المؤمنين بالصبر على أداء الصلاة والعبادات، وأيضا على الاستعداد للقاء عدوهم، ويقول لهم صابروا العدو أي اثبتوا في مواجهة العدو الصاير، حتى تغلبوه على أمره وحتى يلقى عن يد هو صاغر. والصبر في جهاد العدو هو أعلى مقامات الصبر في الذكر الحكيم

وهو يتطلب الاستماته في حرب العدو وبذل كل الطاقة والتضحية بالنفس والروح. والإجماع منعقد على أن جهاد العدو فرض كفاية إلا إذا نزل بدرا الإسلام، فإنه يصبح فرضا عاما على كافة المواطنين وعلى كل فرد فيهم حتى النصر. والآية تشتمل على ثلاثة مقامات: مقام الصبر على طاعة الله في أوامره ونواهيه، ومقام مصابرة العدو في الحرب ومنازلته ومباغتته بمنتهى القوة، ثم مقام ثالث تحمله كلمة: (وَرَابِطُوا) وهى المرابطة في جبهات ميادين الحرب وعلى حافاتها بحيث لا يبرحها المؤمنين المجاهدون في سبيل الله حتى يدقوا أعناق الأعداء دقا ويطحنوا ضلوعهم طحنا. وسعداء من يقاتلون الأعداء حتى الموت، وحتى تكتب لهم الشهادة ظافرين بما وعد الله به المجاهدين في سبيل الله من الحياة الخالدة والنعيم الدائم كما قال في سورة آل عمران: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾. وينقض الحديث الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول أعداؤه من أنه كان يدعو دائما للحرب فإنه لم يحارب أعداءه إلا مضطرا. وواضح أنه في مستهله ينهى المؤمنين عن تمنى لقاء العدو وحربه وأن ينتظروا فربما مدَّ يده يطلب السلام، ويقول لهم إن أبى إلا الحرب فاصبروا في حربه وجهاده ومن استشهد منكم فجزاؤه جنَّة الله ونعيمه إذ تجاهدون في سبيل إعلاء دينه.

والآية الثالثة في بيان فضل الذين تحملوا- في مكة- الأذى من المشركين وصبروا ولم يؤاخذوهم- بعد إسلامهم- على أذاهم لهم، ولم يحاولوا اللانتصاف منهم ويقول الله ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي من الأمور المشكورة والأفعال المحمودة التي يثيب عليها عباده، إذ يرجع بصاحبه إلى باب العفو، وهو باب واسع، وفيه يقول الله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ وروى أبو هريرة أن رجلا شتم أبا بكر والرسول صلى الله عليه وسلم جالس فجعل يعجب من الرجل، فلما أكثر رد عليه أبو بكر بعض قوله، فغضب الرسول وقام من المجلس، ولحقه أبو بكر، فقال يا رسول الله إن كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت، فقال إنه كان معك ملك يرد عنك، ثم قال: يا أبا بكر ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضي عنها الله إلا أعزَّه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة لله إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجلَّ بها قلة. ويستحب الله التسليم له عند نزول محنة أو مصيبة بالإنسان قائلا: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ

قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أي أنهم ملك لله يتصرَّف فيهم كما يشاء وأنهم راجعون إليه في الدار الآخرة فيجزيهم على صبرهم الجزاء الأوفى. ويردد المسلمون هذه الآية كلما نزلت بهم مصيبة وتسمىَّ آية الاسترجاع وهى مستحبة، إذ ليس أمام المسلم حين تنزل به محنة أو معصية إلا أن يسترجع ويصبر تاركا الأمر لربه. والرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث حين دعته إحدى كريماته وقد احتضر ابنها لزيارتها فقال: لتصبر لقضاء الله ولتحتسب أي لتطلب منه الثواب. ويأمر الله- عزَّ ذكره- رسوله في الآية الرابعة وقد علم أخبار الرسل في أممهم السالفة أن يصبر على إذى مشركي قريش له وتكذيبهم لرسالته وقرآنه، ويضرب له مثلا بالرسل أولى العزم المحمود وما صنع بهم أقوامهم من ضروب الإيذاء ومن الكفر بهم وبرسالاتهم، وقد صبروا جميعا حتى أتاهم الفرج من قبل الله، فقضى على أعدائهم، وأَنْجَى رسله ومن آمنوا بهم مما حلَّ بهم من العذاب. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع: انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة، إذ يسلم الشخص أمره فيما نزل به إلى ربه ذاكرا دائما له. ويقول الله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ وهو الصبر الذي لا شكوى فيه ولا شعور بحزن، ويقول الله في سورة لقمان: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾.

٥٥- كتمان السر- الستر على ذنوب المسلمين

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥)

يوسف ٥

٢-وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا

البقرة ١٧٧

٣-إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)

الشورى ٤٣

الأحاديث:

١- عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من شَرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجلُ يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سِرَّها (رواه مسلم في باب إفشاء سر المرأة).

٢- عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألعب مع الغلمان فسلَّم علينا وبعثني في حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت ما حبسك، فقلت بعثني رسول الله لحاجة قلت ما حاجته ؟ قلت إنها سرٌّ، قالت: لا تخبرنَّ بسرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا (رواه مسلم في الفضائل).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان

obeikandi.com

عملتُ البارحة كذا وكذا وقد بات ستَره ربُّه ويصبح يكشفُ سترَ الله عنه (رواه مسلم في كتاب الزهد).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن سَتَر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة (رواه مسلم في الدعوات).

كان يوسف عليه السلام قد رأى رؤيا أو حلما في صباه ذكره لأبيه قائلا: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وكانت زوج أبيه يعقوب حاضرة الحديث، فنصحه أبوه أن يحتفظ بهذه الرؤيا لنفسه سرًّا وأنْ لا يذكرها لإخوته العشرة غير الأشقاء وكانوا يغارون منه لمحبة أبيه له ولأخيه من أمه الشقيق. فخشي يعقوب إن قصَّ رؤياه أن تشتد بهم الغيرة منه والحسد فيكيدوا له كيدا شديدا. وفى الإسرائيليات أن زوج أبيه أذاعت هذه الرؤيا لإخوته، وفى سورة يوسف أن إفراط أبيه في محبته هو الذي أغوى إخوته على الكيد له، فسألوا أباهم أن يخرج معهم في الرَّعي، ورضى، وألقوه في جُبٍّ والتقطه منها شخص في قافلة كانت ذاهبة إلى مصر، وعُرض في أحد أسواقها عبدا واشتراه عزيز مصر، وكانت حينئذ في حكم الكنعانيين.

وكتمان الأسرار من الخصال الحميدة، وينبغي لصاحب السر أن يحافظ عليه وأن لا يذيعه لأحد بأي صورة إذ لا يلبث أن يذيعه بدوره لأحد خلصائه، فينتشر. وفى الحديث النبوي: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، ويقول على بن أبى طالب: سرُّك أسيرك، فإذا تكُّلمت به صرْت أسيره، ويقول عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سرِّه، ويقول بعض الحكماء: سِرُّك من دمك فلا تُجْرِه في غير أوداجك[1] أي في غير عروقك. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى زوجته وتفضي إليه ويفشى سِرهَّا بين أصحابه، إذ أضاع حق نفسه وأضاع حقها عليه. وينبغي على صاحب السر أن يعلم أنه بمجرد أن استأمن شخصا على سره فقد أذاعه، ومهما عاهده أنه لن يذيعه فسيشعر إزاءه بنفس القلق والهم الذي جعل صاحبه يذيعه له فيذيعه بدوره لصديق، ويذيعه الصديق لصاحب له، وينتشر. والله- جلَّ شأنه- ينوه في

(١) أوداج جمع ودج : عرق في العنق يقطعة الذابح.

الآية الثانية بمن يوفون عهودهم إذا عاهدوا وهم في عهود الأسرار قلة شديدة. وكان أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه القلة حتى وهو لا يزال غلاما كان الرسول إذا استأمنه على سر لا يخبر به أحدا. وإذا كان صدر صاحب السر يضيق به ويشعر بغير قليل من الكرب إزاء الاحتفاظ بسره فليعلم أن صدر من يأتمنه عليه مثل صدره، بل ربما كان أشد ضيقا وأكثر منه شعورا بالكرب، فيفشيه حتى يستريح بدوره. والعاقل من ضَنَّ بأسراره عن جميع الخلق واحتفظ بها لنفسه في صندوق صدره.

والآية الثالثة وعيد لمن يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين، مما يدل على نواياهم الخبيثة وأنهم يكنون لهم غير قليل من البغضاء حتى ليبلغ من بعضهم أنهم يحبون أن تشيع عنهم الفاحشة. وهم ليسوا مؤمنين إذ المؤمن لا يحب لإخوانه أن يشيع عنهم سوء، بل يحب لهم أن لا يقال عنهم أي سوء. وبدون ريب شيوع أخبار الفاحشة صادقة أو كاذبة يعد فسادا أخلاقيا كبيرا، إذ قد تؤول إلى ارتكاب بعض الناس لها دون تهيب، وخاصة أصحاب النفوس الخبيثة أو المريضة فإنهم يسارعون إلى اقترافها، وقلما ينفكّون عنها. وقد يتسع هذا الاقتراف لفاحشة حتى يوشك أن يصبح وباء، وينبغي أن تقاومه الأمة الإسلامية بكل ما تستطيع، والله يقول إن هؤلاء الخبثاء الذين يبغون أن تشيع الفاحشة في الأمة حتى تفت في عضدها لهم عذاب أليم في الدنيا بما يُصبّ عليهم من حدود القذف للمؤمنين والمؤمنات، وعذاب أليم في الآخرة بما يصب عليهم من نار الجحيم. وقد رأى الرسول الكريم ببصيرته النافذة أن يقتلع هذه الخصلة الكريهة من نفوس أصحابها، ولاحظ أن منهم من يتباهى بأنه صنع بالأمس هذا الذنب أو تلك المعصية، فقال في الحديث الثالث: كل أمتي مبرءون من ذنوبهم إلا المجاهرين أي المتباهين بارتكاب المعصية، فيكشفون الستر الذي أسدله الله عليهم. ويذكر الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع ثوابا كبيرا لمن رأى مسلما يقترف ذنبا، ولم يقل ذلك لأحد، فستر عليه، فإن الله يستره في الدنيا والآخرة.

٥٦- القناعة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَّ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

البقرة ٢٧٣

٢-وَاللهُّ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

النحل ٧١

٣-إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)

الإسراء ٣٠

٤-وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)

الفرقان ٦٧

الأحاديث:

١- عن عبيد الله بن محصن الأنصاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أصبح منكم آمنا في سِرْبه، مُعافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها (رواه الترمذي والبخاري في كتاب الأدب).

٢- عن عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أفلح مَن أسلم ورزق كفافا وقنَّعه الله بما آتاه (رواه مسلم والترمزى وابن ماجه).

obeikandi.com

٣- عن فَضالة بن عبيد الأنصاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: طُوبى لمن هُدِيَ إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع (رواه الترمذي).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليس الغنى عن كثرة العَرَض [١] ولكن الغنى عنى النفس (رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه).

نزلت الآية الأولى في أهل الصُّفَّة كما مرَّ بنا، وهم فقراء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة وقبائلهم في نجد وهاجروا إلى المدينة لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد بنى لهم رُواقا واسعا ألحقه بالمسجد النبوي وسُمِّى باسم الصُّفَّة، ومنهم المحدِّثان المشهوران أبو هريرة وأبو ذر الغفاري، ويقول أبو ذر كُنَّا إذا أمسينا جئنا إلى رباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر بعض أصحابه أن ينصرف برجل منا ويبقى من بقى معه: نحو عشرة أو أقل فنتعشى معه، فإذا فرغنا نمنا في المسجد. وكان ذلك في صدر أيام الهجرة وسنواتها الأولى، ثم فتح الله على المسلمين، فاستغنى أهل الصفة وخرجوا منها. ويقول الله عنهم ﴿أُحْصِرُوا﴾ أي حُبسوا للجهاد في سبيل الله إذ كانوا يشتركون في كل سَرِيَّة أو كتيبة يبعثها الرسول للجهاد، وكأنهم رصدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله. وتقول الآية إنهم كانوا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سفرا يضربون فيه الأرض بأرجلهم وحوافر دوابهم، والمراد سفر للتجارة إذ كانوا فقراء ولم يكن معهم مال يستطيعون الاتجار به وكسب معاشهم، ويمتدح الله عفتهم عن السؤال، فهم لا يسألون أحدا إطعامهم، متحملين- بصبر- الجوع الشديد حتى كان بعضهم- من شدة مسغبته- وهو يصلى وراء الرسول يضطر إلى القعود في الصلاة من الضعف الشديد. وتقول الآية تعرفهم بسيماهم، أي بما يبدو عليهم من أثر الفقر والحاجة، ويقول أحدهم وهم أبو هريرة: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء يستر بدنه، إذ عليه ما يستر به عورته فقط إما إزار وإما كساء قد ربطوها في أعناقه، منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرَى عورته. وبحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم، وكأنه يتمثَّل أهل الصفة: إن من أصبح آمنا في قومه أو في نفسه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما تملك الدنيا بحذافيرها. وهى قناعة لا

(١) العرض : متاع الدنيا.

تماثلها قناعة، ومن يؤتاها يعيش راضيا حامدا ربه. ويكمل الله وصف أهل الصفة بأنهم (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) ووصفهم بأنهم متعففون وأن الجاهل بحقيقتهم يحسبهم أغنياء يدل على أنهم لا يسألون الناس مطلقا. ويدعو الله في ختام الآية إخوانهم من المسلمين أن ينفقوا عليهم، بل أن يتسعوا بإنفاقهم في وجوه الخير وأنه عليم بما ينفقون، وسيجزيهم عليه أعظم الجزاء.

والآية الثانية يقول إن الله يشمل برزقه جميع الخلق وإن تفضيل بعضهم على بعض فيه بإرادته، لا على حسب ما يرجعون ولا على حسب ما يستحقون، فقد تجد عالما مقتّرا عليه في الرزق وجاهلا موسعا عليه، ولا يعرف العالم أسباب التقتير ولا الجاهل أسباب السعة عليه. وبالمثل قد يكون المسلم مضيَّقا عليه في الرزق والمشرك غنيا وله عبيد كثيرون، والله- جَلَّ وعزَّ- يذكر ذلك ليترتب عليه بقية الآية وأن المشركين الأغنياء لا يرضون أن يُسِوُّوا بينهم وبين ما ملكت أيمانهم من العبيد فيما منحهم الله من الرزق فكيف يرضى الله أن يُسَوىَ بينه وبين عبيد له في الألوهية ؟ وكيف يشركونهم معه في سلطانه ؟ وذلك مثل قول الله تعالى في سورة الروم: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهو مثل ضربه الله لنفس المشركين العابدين معه أصناما وأندادا معترفين بأنها من عبيده، فقال لهم إنني أضرب لكم مثلا تشهدونه في أنفسكم أتقبلون أو ترضون أن يكون ما ملكت أيمانكم من العبيد شركاء لكم في أموالكم بالسوية بحيث يكونون مساوين لكم ؟ وإذا كنتم لا ترضون ذلك وتخافون أن يقاسمكم عبيدكم أموالكم وأن يتصرفوا فيها تصرفا لا يرضيكم فكيف تفترضون لله أن يشرك عبيده من الأنداد والأصنام في ألوهيته وفيما يمنحكم من الأموال والأرزاق. وبؤسا لهؤلاء المشركين الأغنياء، وعلى الرحب الفقراء من أهل الصفة ومن يعيشون عيشة الكفاف قانعين بما رزقهم الله مهما يكن قليلا، فإن هذه القناعة تضفي على الإنسان رضا بل سعادة طاغية. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمك من المال إلا قدر حاجته في يومه، وفى الحديث أنه كان لا يُقيل مالا ولا يبيِّته أي أنه كان لا يملك من المال ما جاءه صباحا إلى وقت القيلولة في نفس اليوم، وما جاءه مساء لا يمسكه إلى الصباح. ومن قوله الحديث الثالث الذي يقول فيه طوبَى أي ثواب عظيم مستطاب لمن كان عيشه كفافا أي بمقدار حاجته وقنع به راضيا مرضيا.

والآية الثالثة تكررت لها في القرآن الكريم نظائر ردا على ما كان يجول بخواطر بعض المسلمين من أن الله وسَّع الرزق على المشركين في الدنيا فزادهم شركا وطغيانا بينما ضيَّقه على كثير من المسلمين. ويقول الله في سورة يونس إن هذا الخاطر دار بنفس موسى إزاء فرعون وملكه المتحضر المترف في مصر وما أغدق عليه من المال قائلا ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ والله- تقدس اسمه- يقول إنه ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ ويوسعه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عبيده، ويقدره ويقلِّله لمن يشاء منهم، ولذلك أسباب تقصر عقولنا عن تبينها، وكل هذا الغنى والمتاع في الدنيا فان، والباقى هو ما عند الله من متاع الآخرة.

والآية الرابعة تدعو إلى الاعتدال في الإنفاق بين الإسراف والإقتار.و الإسراف: تجاوز القدر الكافي من المشتهيات، إذ قد يدعو ذلك الشخص المسرف إلى تناوله مشتهيات وملذات مذمومة، وأيضا فإن ذلك يؤدى بالمسرف إلى استنزاف أمواله، فيحاول الحصول على المال بطرق سيئة. والإسراف بذلك مذموم في نفسه وفيما يترتب عليه. والإقتار: الشح والتضييف الشديد في النفقة، وهو إجحاف شديد على الزوجة والأبناء، وضرورة بالشخص نفسه وبأسرته وبذوي رحمه لا يقف عند حد، وكم من آباء خسروا أبناءهم بسبب شحِّهم المقيت. والله لذلك يدعو المسلم إلى أن يكون وَسطا في الإنفاق بين الإفراط والتفريط، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي التوسط ﴿ قَوَامًا ﴾ أي لا عوج فيه. وينبغي أن نضع القناعة نصب أعيننا، وأن لا نلجأ إلى الشح والبخل طلبا للغنى وكنز المال. وبحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الرابع إن الغنى ليس في كثرة المال، فهذا غنى مادي، والغنى الحقيقي غنى النفس، وهو أنفس من أن يقدَّر بمال.

٥٧- الرضا بالرزق

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

البقرة: ٢١٢

٢-اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

الرعد: ٢٦

٣-وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ

النحل: ٧١

٤-إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)

الذاريات: ٥٨

الأحاديث:

١- في الحديث النبوي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال: أنفق بلالا، ولا تخش من ذي العرش إقلالا (رواه ابن كثير في تفسيره).

٢- عن المستورد أخي بنى فهد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمِّ. وأشار بالسبَّابة فلينظر بِمَ يرجع؟ (رواه مسلم في باب فناء الدنيا، وابن حنبل في مسنده).

٣- عن الحسن البصري كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعري: اقنَع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق. بلاء يبتلى به كُلا،

obeikandl.com

فيبتلى من بسط له كيف شكرُه لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوَّله (رواه ابن كثير في تفسير الآية الثالثة).

٤- في الحديث القدسي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله: يا بن آدم تفرَّغْ لعبادتي أملأ صدرك غنىً وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك غِلاًّ ولم أسدّ فقرك، (رواه ابن حنبل في مسنده والترمذي وابن ماجه).

والله- تبارك وتعالى- يذكر في الآية الأولى جوده الفياض على عباده بأرزاقهم، والرزق هو ما يحصل الشخص عليه بعمله لسد ضروراته وحاجاته في معيشته وحياته من المأكل والملبس والمسكن، وأطلقه الله في القرآن مجازا على ما يتناوله الحيوان ودوابَ الأرض صغيرها وكبيرها من الغذاء كما قال في سورة هود: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾. وسمَّى الله الغيث الذي ينصبُّ من السماء رزقا قائلا في سورة الذاريات: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ الذي يحيى الله به الأرض فتجود بثمارها وزروعها. والرزق نوعان: ظاهر لمنفعة الأبدان كالأقوات، وباطن لمنفعة العقول والقلوب والنفوس من مثل التقوى، ومثل المعارف والعلوم والآداب، ويدخل فيه كل كسب للمال عن طريق الأعمال والوظائف والصناعات والتجارات والشركات والزراعة والبيوع والإيجارات والتعليم والتأليف ومزاولة أي مهنة لنفع الجماهير. والله يعطى ويرزق من خلقه رزقا وعطاء كثيرا بدون تعداد في الدنيا والآخرة، وهو دائم العطاء ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لبلال مؤذنه: أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فهو سيظل يجزل لك في العطاء، وفى حديث يقول الله- جلَّ شأنه- ابنَ آدم أنفقْ أُنفِقُ عليك، أي أنفق مالك في الخير يهطل عليك الرزق.

ويقول الله- تقدس اسمه- في الآية الثانية إنه يبسط الرزق ويوسِّعه على من يشاء من عباده المؤمنين والكافرين، ويقدره ويقتِّره على من يشاء منهم، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وكأنه- عز شأنه- يرد على ما يجول في خواطر بعض المؤمنين إذ يقولون كيف يبسط الله الرزق على الكفَّار فيزدادون كفرا، وهلا ضيق عليهم الرزق في الدنيا كما قال موسى في سورة يونس لربه: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

ويقول الله في الآية الثانية عن الكافرين: ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ استدراجا لهم كما قال في سورة المؤمنون: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ إعزازا لهم بل هو استدراج لهم وإمهال ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ ﴾. وقال في سورة التوبة: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكما قال في سورة آل عمران: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي ﴾ أي ما نمهلهم فيه ﴿خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. وفى الآية الثانية يحقِّر الله متاع الحياة الدنيا بالنسبة لمتاع المؤمنين العظيم في الآخرة قائلا: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ قليل، وصوَّر الرسول في الحديث الثاني هذا المتاع القليل بأنه مثل ما يضع أحد الصحابة إصبعا له في اليم ويرجعها منه فإنها لا تكاد ترجع بشيء.

والآية الثالثة في اختلاف الأرزاق وأن الله فضَّل فيها بعض الناس على بعض لحكمة إلهية قد يعزُّ علينا أو على البشر معرفتها، إذ يرون أحيانا جاهلا أحمق موسعا عليه في الرزق. وعاقلا فاضلا مقترا عليه في رزقه، ولا يعرفون الأسباب في ذلك، لأنها أسباب إلهية لا يدركونها، ولذلك نسب الله هذا التفضيل في الرزق وأسبابه إليه، فهو- وحده- المتصرف في تفضيل بعض عباده على بعض في الرزق ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه في حديثه لأبى موسى الأشعرى، اقنع برزقك من الدنيا فإن الله فضل بعض عباده على بعض في الرزق ليبتلى بذلك ويختبر من وسَّع عليه رزقه ليرى كيف يشكره وكيف يؤدى الحقوق التي فرضها عليه في رزقه الذي أعطاه، فيخرج زكاته ويبرّ أبويه وأقرباءه والفقراء واليتامى والمساكين.

ويذكر الله في الآية الرابعة أنه هو ﴿الرَّزَّاقُ ﴾ فهو رازق سواه، يهب الأرزاق الظاهرة من الأقوات والأموال والأرزاق الباطنة من الإيمان والتقوى وكل ما يخص العقول والنفوس والأفئدة كما مرَّ بنا. ويُروَى أن شخصا سأل بعض النسَّاك من أن تأكل؟ فأجابه: من خزائنه، يشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ فقال السائل للناسك مستنكرا: أينزل عليك الخبز من السماء، فأجابه الناسك: لو لم تكن الأرض له (أي الله) لكان يلقيه من السماء، فقال السائل له: إنما أنتم قول ليس عندكم إلا الكلام، فقال الناسك: لم ينزل من السماء إلا الكلام، فقال السائل وقد أفحمه ولزمته الحجة: أنا لا أقوى على مجادلتك، فقال الناسك: لأن الباطل لا يقوم مع الحق. والناسك يشير بكلمة الأرض إلى أن الإنسان يتوكل على الله ويعمل

ويلقى الحب في الأرض الطيبة لينتظر من ربه الثمرة المأمولة. وليست سعة الرزق تكريما ولا ضيقة هوانا إذ لو كان الناس متساوين في الرزق لتعطلت الحياة القائمة على اختلاف الأعمال فيها واختلاف الأرزاق، ونضرب مثلا برغيف الخبز وما يحتاج إليه من زارع لحبات قمحه وحاصد وطاحن وخابز وبائع للخبز، وكل منهم له رزق يختلف به عن صاحبه، وكذلك كل ما يحتاج الناس إليه من الارتقاء والتعاون في جميع أمورهم وشئونهم في الحياة وفى الحكم وفى السياسة والاقتصاد وفى الفنون والعلوم والتعليم وفى الصناعات والتجارات، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له، وكل له حظه ونصيبه من الرزق حسب عمله وجهده وسعيه.

obeikandl.com

٥٨- العمل الصالح

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١-مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

النحل: ٩٧

٢-إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

فاطر: ١٠

٣-وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)

فُصِّلت: ٣٣

٤-مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)

فُصِّلت: ٤٦

الأحاديث:

١- عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطَى بها في الدنيا ويُجزّى عليها في الآخرة (رواه ابن حنبل في مسنده ومسل في كتاب صفات المنافقين: باب جزاء المؤمن بحسناته).

٢- عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومَن سَتَر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه (رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء).

openkandil.com

٣- وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن دَعَا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا (رواه مسلم في آخر كتاب العلم).

٤-عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلِّمْ، وإذا دعاك فأجبْه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عَطِس فحمد الله فشمِّتَهُ، وإذا مَرِض فعُدْهُ، وإذا مات فاتبعه (رواه مسلم في كتاب السلام).

والله- تقدَّس اسمه- يقول في الآية الأولى إن من عمل عملا صالحا ذكر أو أنثى من المؤمنين نعده بأن تكون حياته حياة طيبة. والعمل الصالح هو العمل الخيِّر أو الطيب مما دعا إليه القرآن الكريم، مما يتصل بعبادة الله وحسن الخلق وبر الجماعة، أما العمل الصالح في العبادة فيراد به أداء المؤمن للفرائض الدينية من صلاة وغير صلاة أداءً تشترك فيه الجوارح والقلب. وتتضح فيها قربات إلى الله كثيرة بذكر اسمه وتسبيحه وتمجيده والثناء عليه وخاصة في الصلاة والصيام والحج. وأما العمل الصالح المتصل بحسن الخلق فمثل الشجاعة والكرم والحلم والصفح والعفو وعزة النفس والرحمة والرفق، واجتناب الآثام والخطيئات والدنايا والنقائص. وأما العمل الصالح المتصل بالجماعة فعلى رأسه البر بالفقراء والمساكين واليتامى وكل ما يقدمه المؤمن لمجتمعه وأفراده من معروف شاعرا في عمق بأن لكل فرد في المجتمع حقا عليه، حقا في المعاملة الكريمة، وحقا في العون والمساعدة، وحقا في التعهد والرعاية، وحقا فيما منحه الله من مال، فالمال مال الله ائتمنه عليه، وينبغي أن لا يمنعه عن أهله في أسرته الصغرى: أسرة أبويه وزوجته وأبنائه وأقربائه وبالمثل لا يمنعه عن أفراد أسرته الكبرى: أسرة أمته، وحتى الكلمة الطيبة يقولها لأخيه، وحتى الوجه البشوش المستبشر يلقاه به، وحتى ما قد يؤذى أخاه في الطريق فينحيه عنه. كل ذلك يدخل في المعروف أو بعبارة أخرى يدخل في العمل الصالح الذي يحييه الله به حياة طيبة في الدنيا، ويجزيه به جزاء حسنا في الآخرة. وبحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث الأول: إن الله لا يظلم المؤمن في حسنة يؤديها، بل يثيبه عليها الثواب الجزيل في الدنيا والآخرة.

والله- عزَّ شأنه- في الآية الثانية يقول إن الكلم الطيب من ذكره وتسبيحه وتمجيده يصعد إليه، كما يقول إن العمل الصالح يرفعه. ويذكر الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني

صورة من العمل الصالح، كلها تتصل بالمؤمن فمن فرَّج عن أخيه المؤمن كُرْبَةً في الدنيا فرَّج الله بها عنه كُربَة في الآخرة، ومن أتاح لمعسر يُسرًا في عسره جزاه الله بيسر في الدنيا والآخرة، وحتى من ستر مسلما على معصية حدثت منه، ستره الله في الدنيا والآخرة. وفى الحديث النبوي كل معروف، وبعبارة أخرى كل عمل صالح، تؤديه إلى أخيك يرفعه الله بيمينه، كما جاء في حديث نبوي عن أبى هريرة: من تصدق بصدقة من كسب طيب- ولا يقبل الله إلا طيِّبا- تلقاها الرحمن بيمينه. فيربِّيها له كما يربى أحدكم فُلُوَّه، أي مهره المفطوم. والمؤمن فيما يقدم لربه من أعمال صالحه، يجزيه ربه عليها جزاء مضاعفا، وهو جزاء استثماري عظيم.

وتُعلى الآية الثالثة من دعوة المؤمن إلى الله وتوحيده ونبذ الشرك وكل ما يتصل به من شعائر كما تعلى من العمل الصالح يعمله المؤمن مبتغيا به وجه ربه طمعا ورجاء في جزائه وثوابه. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ اعتزازا وافتخارا بإسلامه وأنه صادق كل الصدق في اعتقاده. والمؤمن- بذلك- نافع لنفسه ولغيره، فليس ممن يأمرون بالمعروف ولا يأتمرون به الذين قال الله فيهم بسورة الصَّفِّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فهو ليس من هؤلاء المنافقين الذين نزلت فيهم الآية، إنما هو من المؤمنين الذين أخلصوا دينهم وأعمالهم لربهم، يبتغون منه القبول والرضا والثواب والجزاء، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، وهى عدالة ربانية تلقانا دائما في الشريعة الإسلامية.

ويقول الله- جَلَّ شأنه- في الآية الرابعة إن من عمل عملا صالحا فنفعه عائد إليه وإلى نفسه، ومن أساء فوبال إساءته يرجع إليه وإليها. والله لا يثيب أحدا إلا ثوابا يستحقه، ولا يعاقب أحدا إلا بعمله السيء إذ هو ليس ظالما ولا ظلاما لعبيده. ويذكر الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديث الرابع حقوقا ستة للمسلم على المسلم: هي السلام وردُّه، وقبول الدعوة للضيافة أو الزيارة، والإخلاص في النصح، والزيارة في المرض، وتشييع الجنازة إذا مات، وحتى إذا عطس وحمد ربه يشمِّته بمثل قوله: يرحمك الله. وتكاد تكون كل مواساة المسلم للمسلم حقا وعملا صالحا بجانبه الأعمال الكبرى في الجهاد إذ يقول الله في سورة التوبة عن جهاد المسلمين إنه ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ جوع ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ

مَوْطِئًا﴾ أي لا ينزلون منزلا ﴿ يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ في الجهاد وحرب أعداء الله ورسوله ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ في السير إلى الأعداء ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ عملا صالحا ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. ويحث القرآن مرارا وتكرارا أن تسود بين المسلمين أخوة صادقة تقوم على التعاون في السراء والضراء، وأن يمد المسلم لأخيه العون وخاصة إذا طلب منه ذلك حتى في الماعون وهو كل ما يعين الإنسان في العمل من مثل القدر والإناء والفأس والإبرة والغربال. وتذم سورة الماعون من يمتنعون عن إقراض إخوانهم مثل هذه الأدوات ومثل النار والملح والماء. وعن السيدة عائشة أن الرسول قال: من أعطى لأحد نارا فكأنما تصدق بجميع ما طُبخ بتلك النار، ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ما طُيِّب به ذلك الملح، ومن أعطى شَربةً من الماء حيث لا يوجد، فكأنما أحيا نفسه، ومَن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. والمعروف أو العمل الصالح- بذلك- يشمل أكبر الصور منه كصور الجهاد في سورة التوبة كما يشمل أصغرها مما يعار حتى الإبرة والغربال والملح والنار والماء. وكل تلك مننٌ على العباد لا تكاد تحصى أو تستقصي.